المعالم العلمية الكبرى في صالحية دمشق وأثرها على المدينة

الدكتور أسامة شحادة(١)

(1) طبيب وباحث في التاريخ والتراث الدمشقي.

ملخَّص البحث

يتناول هذا البحثُ جوانب من قصة مدينة صالحية دمشق، ولا سيَّما الجانبان العلمي والاجتماعي، إذ انتشرت في هذه المدينة مراكز العلم بكثرة، وفي كل مكان، ورافق ذلك ظهور علماء على أعلى المستويات، أغنَوا هذه المدينة بنشاطاتهم العلمية، وقد ركَّز البحث على أهم المعالم الكبرى في الصالحية، وما دار فيها من أنشطة علمية، وهي: المسجد المظفريُّ، والمدرسة العمرية، ودار الحديث الضيائية، ومدرسة الصاحبة، ودار الحديث الأشرفية، والبيمارستان القَيمريُّ.

تمهيد:

يجزم كثير من الباحثين أنَّ نشوء الصالحية وشهرتها إنما قام على العلم، فغدت الصالحية (مدينة للعلم)[٢]، ولعلَّ الكثير ممن كتب عن الصالحية ركَّز على دور المدرسة العمرية، وبحث في جهود الرعيل الأول من المؤسِّسين، ولكنَّ الباحث سيبسط جوانبَ من العلم ومسائله امتدَّت من أقصى غربها عند منطقة العَفيف، إلى أقصى شرقها عند منطقة ركن الدين حاليّاً.

ويُشير الباحث إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي ما ذهب إليه الباحثون من نسبة حي المدارس للعصر المملوكي، إذ شاع تحديدُهم له بالجهة الغربية من جامع الشيخ محيي الدين بن عربي، وهي المنطقة المعروفة اليوم بالشركسية، فالبحث سيُري منطقة جغرافية أوسع من هذا التحديد، وسيُقدِّم لنا حقائقَ عن قِدَم هذا الحي ليشمل العصرين الزنكي والأيوبي.

ويربط الكثير من الباحثين الازدهار الفكري في دمشق بدخول نور الدين إليها (٥٤٩هـ/١١٥٤م)، ومع أنَّ نور الدين ترك بصمته وأثمرت جهودُه، ولكن لا بدَّ من الإشارة إلى صحوة علمية عاشتها دمشق في العصر السابق لهذه المرحلة، نتلمَّس ذلك من تراجم ابن عساكر في تاريخ دمشق، كذلك تاريخ داريا[٣]، ومعه الذيل لابن الأكفاني – شيخ ابن عساكر- وهذه الحركة شهدتها المساجد، ثم تكلَّلت بالشيوع والانتشار من خلال بناء المدارس، ومن أهم مظاهر ازدهار الحياة العلمية في دمشق زمن نور الدين (٥٤٩- ٥٦٩هـ/١١٥٤-١٢٠٠م):

- قام السلطان نور الدين بترميم المساجد، وبناء الجديد منها، وذلك لإصلاح ما أفسدته الحروبُ المتتالية التي تعرَّضت لها دمشق وضواحيها، وقد أسهم العلماء في تنبيه نور الدين إلى أهمية المسجد، ورعايته للعلم وبثِّ الأمن في المجتمع، وعلى رأس هؤلاء خطيب داريا محمد بن محرز الوهراني، الذي نبَّه نورَ الدِّين من خلال رقعته عن المساجد[٤]، وفعلاً قام نور الدين بأعمال جليلة أعادت الحياة لهذه المساجد.
- لعلَّ من أهم المظاهر التي رافقت ازدهار الحركة العلمية، وكانت عنوانها، بناء المدارس والمؤسسات وتنوُّع اختصاصاتها، وهو الذي شاع ليشمل البلد وخارجَها ولاسيَّما الصالحية، ومن أهم هذه المدارس داخل

(2) هذا ما عَنون الدكتور شاكر مصطفى كتابه عن الصالحية وآل قدامة.
(3) تاريخ داريا: الخولاني عبد الجبار.
(4) والرقعة جزء من كتابه (جليس كل أنيس)، وقد نشرها المنجد في مجلة مجمع اللغة العربية.

دمشق:

– دار الحديث النُّورية: أنشأ هذه الدار السلطان نورُ الدين، وهي تختصُّ بعلم الحديث – روايةً ودارية – وتُعَدُّ هذه الدارُ أولَ دار للحديث الشريف في دمشق[٥].

ويؤكد ابن الأثير هذه الحقيقة بقوله: ((وهو أوَّلُ مَن بنى داراً للحديث فيما علمناه))[٦]، وقد ترافق وجود هذه المدرسة بتولية التدريس والنظر في هذه الدار للحافظ ابن عساكر، مُؤرِّخ الشام، وأحد أبرز علماء النهضة فيها.

ويضاف إلى المدارس نوعٌ آخر جمع العلم والعبادة، وهذا النوع هو الخوانق والرُّبُط، ومن أهمها في دمشق:

– الخانقاه السُّميساطية: وسُمِّيت بذلك نسبة لأبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السليمي السُّميساطي (ت٤٥٣هـ/١٠٦١م)، تولَّى مشيختها زمن نور الدين الوزيرُ أبو المظفر الفلكيُّ[٧].

– خانقاه القصر: وقد وصفها ابنُ جبير في رحلته، وأنَّها من أعظم ما شاهدَ للصُّوفية[٨].

وإضافة إلى المدارس والخوانق والرُّبط وُجدت مراكزُ لتعليم الصغار اليافعين، وهذا ينمُّ عن العناية بالتربية وتنشئة الجيل، وعُرفت هذه المراكز بـ(الكتاتيب)، وبعضُهم أخذ حيِّزاً من طرف المسجد أو غُرَفاً مُلاصقة، ومنها الحلقة الكوثرية والمجتمع السُّبعي، وهذان المركزان في المسجد الأموي، بل إن بعضَ هَذه الكتاتيب خُصَّ بها المحتاجون والأيتام، فعُرِفَت بـ(مكاتب الأيتام) أو (مكاتب السبيل).

يقول ابن عساكر: ((ونصَّب جماعةً من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين، وأجرى الأرزاقَ على معلميهم وعليهم بقدر ما يكفيه)).

- المظهر الآخر من مظاهر ازدهار الحركة العلمية هو انتشار المكتبات، ولا يخفى ما لأهمية هذا الجانب الذي يُعَدُّ بحقٍّ مقياساً لتطوُّر المجتمع، ولا سيَّما في عصر كان النَّسخُ هو السبيل الوحيد لنشر المعرفة، وعُرفت هذه المراكز بـ(خزائن الكتب أو المكتبات)، وكانت سياسة نور الدين تزويد كلِّ مؤسسة ومركز بمكتبة قيمة، وأوقف عليها الأوقاف، ولهذا ألمع ابن عساكر: ((إنّه حصَّلَ الكثيرَ من كتب العلوم، ووقفَها على طلابها، وأقام عليها الحفظةَ)).
- رعاية العلم والمعلّمين بدءاً من المؤدِّب – وهو المختص بتعليم الصغار – وانتهاءً بالمدرسَين في المدارس والمعيدين المساعدين لهم، ورعاية الشخصيات البارزة من العلماء، وفتح المراكز العلمية لهم.
- من هذه المظاهر الجَليّة ظاهرةُ نشر العلم عند المرأة، فقد أسهمت

(5) خطط دمشق: أكرم العلبي، ص90.
(6) التاريخ الباهر: ابن الأثير، ص 172، وينظر عنها: منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص-58 ص60.
(7) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج15، ص224.
(8) ابن جبير: الرحلة، ص257.

المرأة في عصر نور الدين بدفع الحياة العلمية وبنائها، وقد أمدَّتنا المصادر بأسماء الكثيرات ممَّن برعْنَ في العلوم المختلفة، وحصَلْنَ على الإجازات، حتى إنَّ ابن عساكر العالم الكبير (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م) أخذ العلم من كثير من الشيوخ، وكان عداد شيوخه من النساء (بضعًا وثمانين) امرأة[٩]، ومن أشهر النساء ستُّ العجم فاطمة بنت علي، المعروفة بالعالمة الصغيرة.

- ولم تقتصر العناية على العلوم الشرعية فقط، بل امتدَّت حتى شملت العلوم الكونية والإنسانية، ومن أهم هذه العلوم الرياضيات والفلك، وقد برزَت الموصِل فيهما، وكان تأثيرُها في العاصمة دمشق كبيراً، وكذلك ازدهر علمُ الطبِّ والصيدلة، ومن أهم هذه المراكز: البيمارستان النوري الذي برز فيه الطبيب أفضَلُ الدولة أبو المجدِ محمد بن أبي الحكم (ت ٥٧٠هـ/١١٧٤م)[١٠]، وجعل على الصيادلة نقيباً عُرف بـ(رئيس العشَّابين).
- استقبلت دمشقُ خلال هذا العصر العلماءَ من كل أقطاب الدنيا، وأدَّى ذلك لتنوُّع الأفكار والمشارب، ومن أشهر هؤلاء العلماء الحافظ السمعاني والحافظ أبو طاهر الأصبهاني السِّلفي.
- ومن أهم المظاهر رعايةُ الأوقاف والأحباس، وهو يمثل عاملاً مهمّاً في ازدهار الحياة في العصر الزنكي وغيره من العصور، فبعد أن ضاعت وسُلبت حُوفظ عليها، وتمَّ تنميتُها والتدقيق في طرق صرفها، فأثَّر ذلك في ازدهار المجتمع عامة.

حاول الباحث في هذه الخلاصة تلمُّسَ مظاهر ازدهار الحياة الفكرية في هذا العصر، وهو ما سيبسطه تفصيلاً ويُخصِّصُه في الصالحية، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الباحث ركَّز على العصر الزنكي بدمشق؛ لأنه النواة والانطلاقة، ولا سيَّما عند مجيء المقادسة وبنائهم للصالحية، ولكنْ لا بدَّ من الإشارة إلى أن هذه المظاهر بقي جُلُّها مرعيًّا في العصر الأيوبي، ولم يتمَّ استقصاء كل جوانب الازدهار، لأنَّ أحوال دمشق ليست من صميم البحث وإنما توطئة له.

ويُلخِّص الباحثُ أسباب هذا الازدهار في العصرين الزنكي والأيوبي:

١- التشجيع الكبير الذي لقيته الحركة العلمية من قادة دمشق، ولا سيَّما نور الدين، ثم صلاح الدين ومن بعض السلاطين الذين حكموا بعد صلاح الدين.

٢- كان هؤلاء السلاطين علماء أيضاً جلسوا في مجالس العلم، وتلقَّوا العلوم، وقد جلس نور الدين لتلقي العلم، وكذلك صلاح الدين، ومن أخبار البيت الأيوبي نجد كثيراً من الملوك علماء، ومن أشهرهم الملك المعظَّم عيسى.

٣- تنافس بعضُ الوزراء والقادة والأغنياء في تلقِّي العلم، وفي الإنفاق على بناء المدارس والمراكز العلمية الأخرى، ورعاية أهل العلم.

(9) معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج13، ص76.
(10) ينظر حول البيمارستانات: بيمارستان نور الدين: صلاح الدين المنجد. والبيمارستانات في دمشق: إلهام محفوض.

٤- توجيه قدرات الوقف في رعاية المؤسسات التعليمية، ونشر هذه الثقافة بين العامة.

٥- توجُّه أساطين العلم الكبار إلى دمشق للإقامة فيها أو للرحلة لطلب العلم ثم العودة لبلادهم، وهذه الظاهرة تحتاج إلى بحث مستقل، فدمشق في العصرين الزنكي والأيوبي شهدت وجود المئات من الأعلام من المقادسة إلى جانب العلماء القادمين الذين أثَّروا في حياة دمشق وتأثَّروا بها من أمثال: الحافظ الأصبهاني السِّلفي - نسبة إلى بني سِلفة -، وقد عُمِّر قرناً من الزمان، وقدم دمشق سنة (٥٠٠هـ/١١٠٧م)، وروى عنه العلماء.

ومن هؤلاء العلماء الأديب والمحدِّث والطبيب والفلكي والرياضي والفرائضي، ومنهم المناظر والفيلسوف، وكل ذلك جعل من دمشق واحدةً من أهم مراكز العلم في ذلك العصر.

أولاً - المسجد المظفري:

هذا الجامع هو المؤسسة العلمية الكبيرة، وهناك خلاف بين الباحثين هل هو أقدم أم المدرسة العمرية، وقد نتج هذا الخلاف عن الخلط بينه وبين المسجد العتيق، أما العمرية فهي أقدم من الجامع المظفري، وقد عُرف بأسماء أربعة هي:

١_ الجامع المظفري: نسبة لبانيه السلطان مظفر الدين كوكبوري، وهذه التسمية هي أقدم تسمية للجامع وأكثرها استعمالاً عند المؤرخين، كالبرزالي وابن كثير والذهبي والنعيمي[١١]، وهذه التسمية كانت شائعة عند أهل الصالحية، إذ تُبيِّن السماعات على الكتب المقروءة في الجامع هذه التسمية أكثر من غيرها[١٢].

٢_ جامع الجبل: وذلك نسبة للموقع، حيث يقع في سفح جبل قاسيون، وهذه التسمية وردت عند المؤرخ ابن شداد (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) في الأعلاق الخطيرة[١٣]، ثم وردت عند النعيمي[١٤]، ونقل أبو شامة

الجامع المظفري (الحنابلة)

(11) الجامع المظفري: أحمد فائز الحمصي، مجلة الحوليات الأثرية، مجلد 35، ص256.
(12) ينظر: جامع الحنابلة المظفري: مطيع الحافظ، ص21.
(13) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد، قسم دمشق، ص86.
(14) الدارس: النعيمي، ج2، ص335.

المعاصر لبناء هذا المسجد من سبط ابن الجوزي قوله: ((وفيها - أي سنة ٥٩٨هـ - شرع الشيخ أبو عمر بن أحمد بن قدامة شيخ المقادسة - رحمه الله - في بناء المسجد الجامع بالجبل))[١٥].

٣_ جامع الحنابلة: وهو الاسم الشائع اليوم لمن يزور الصالحية، وسُمِّي كذلك حسب تخصيص الوقف.

٤_ جامع الصالحين: نسبة لمؤسِّسيه وما عرفوا به من صلاح في سيرتهم.

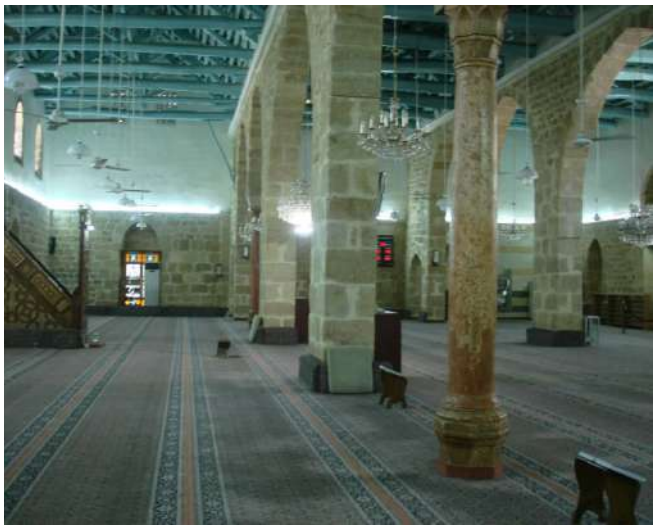

حرم الجامع المظفري (الحنابلة)

يقع الجامع اليوم في الصالحية، في حيٍّ عُرف بأبي جرش - زقاق الحنابلة - إلى الشمال فيما يُسمَّى اليوم بسوق الجمعة.

ومثَّل بناء الجامع المظفري (الحنابلة) بُعداً عمرانيّاً واجتماعيّاً، فتَذكر الروايات القريبة من عصر بناء هذا المسجد - ولا سيَّما أبو شامة[١٦] وابن كثير[١٧] - أنَّ العمل به بدأ سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م، إذ شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة في بناء المسجد الجامع بالسفح، وتذكر الرواياتُ أنَّ بانيه الذي أنفق المال لبنائه هو أبو داود محاسن الفامي، وتفرَّد ابن شدّاد بتسميته فقال: ((أوَّلُ مَن خطَّهُ الحاج علي الفامي من محلة مسجد القصب خارج باب السلامة))[١٨].

ونُركِّز الآن على حركته العلمية المتمثِّلة بدور الخطيب والإمام والمدرسِّين واستقبال طلبة العلم، وهي كما يأتي:

_ تولَّى الإمامُ أبو عمر المقدسي - المشرف على بنائه - الخطابةَ والإمامةَ معاً، وكان الخطيب هو الموجِّه والمؤدِّب والمدرِّس، مع وجود مركز آخر له هو المدرسة العمرية، وقد وصفت المصادر حال أبي عمر في الجامع، فقد كان يصعد المنبر، وعليه ثوب خام مهدول الجيب وفي يده العصا، والمنبر يومئذ ثلاث مراق[١٩]، وكان إذا خطب تَرِقُّ القلوب، ويبكي بعضُ الناس بكاءً كثيراً، وكان ربما أنشأ الخطبةَ وخطب بها[٢٠]، وخلفه أخوه المُوفَّق في خطابة الجامع، وخطب في هذا الجامع بعد الموفق: ابنه عيسى بن الموفق (ت ٦١٥هـ/١٢١٨م)، وسمع بدمشق وبغداد ومصر، كان خطيباً محبوباً إلى الناس، ولي الخطابة والإمامة بالجامع، وسعى في مصالحه وحافظ على أوقافه[٢١].

(15) المذيل على الروضتين: أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، ج1، ص117.
(16) المذيل على الروضتين: أبو شامة، ج1، ص117.
(17) البداية والنهاية: ابن كثير، ج 13، ص32.
(18) الأعلاق الخطيرة: ابن شداد، قسم دمشق، ص 86.
(19) المذيل على الروضتين: أبو شامة، ج1، ص215، جامع الحنابلة المظفري: مطيع الحافظ، ص64، والمقصود بالمراقي الدرجات، وهو ما تغير فيما بعد.
(20) سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج22، ص8.
(21) التكملة لوفيات النقلة: المنذري، ج 2، ص449، تاريخ الإسلام: الذهبي، ص254.

ـ شرف الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ أبي عمر (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)[٢٢]، خطيب جامع الجبل، ورحل في طلب العلم، قال عنه الحافظ الضياء: ((كان فقيهاً فاضلاً، ديِّناً ثقة)) والضياء أرَّخ له ولوفاته ثم مات بعده بأسبوع (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م).

ـ عزُّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن أبي عمر (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٨م)، خطيب الجامع المظفري، الإمام الزاهد الصالح القدوة، قال عنه ابنُ الخباز: ((كان إذا دعا كان القلب يشهد بإجابة دعائه من كثرة ابتهاله وإخلاصه، وتذلُّله وانكساره، وله أدعية تُحفظ عنه، وكان أمَّاراً بالمعروف ونهّاءً عن المنكر))[٢٣].

ـ عبد الرحمن بن أبي عمر (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) الزاهد الخطيب، قاضي القضاة، وُلد بدير المقادسة، وقال عنه الإمام النووي: ((هو أجل شيوخي))[٢٤].

ـ ومن خطباء جامع الحنابلة ابنُ الشيخ أبي عمر الخطيب شمس الدين عبد الله بن محمد المقدسيُّ الصالحي[٢٥]، وتفقَّه على والده وعمه الموفق، وخرَّج له الحافظ الضياءُ جزءاً عن جماعة من شيوخه، وخطب بجامع الجبل مدّةً، وكان شيخاً حسناً يُشار إليه بالعلم والدِّين، والورع والزهد وحُسن الطريقة وقلّة الكلام، وتوفِّي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م).

نستطيع تلمُّس الدَّور العلمي لهذا المسجد من خلال تراجم خطبائه وأئمته والمدرسين فيه، ومن خلال السَّماعات الَتي رافقت الكتب والمجاميع التي وصلت إلينا[٢٦].

وفي هذه السماعات سمع الصغار من الكبار- والكبار من الصغار - وسمع الأب مع ابنه أو ابنته.

وفي هذا الجامع صلَّى الحنابلة وغيرُهم، ووفد العلماء ممَّن هم على مذهبهم أو من غير المذهب، وهنا يظهر من محتوى هذا السماع أسماءُ مَن استمع لهذا المجلس، ويُقدِّم السَّماعُ معلوماتٍ مُهمّةً عن أعمارهم وأنسابهم واسم كاتب هذا السماع.

وهناك ظاهرة علمية رائعة هي تعدد الشيوخ، فجزء فيه حديث الحوراني سُمِع على ستة شيوخ في عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م في الجامع المظفري[٢٧].

ومن مظاهر التدريس في هذا الجامع وجود المعيد الذي يقرأ على الشيخ والشيخ يشرح، وهناك من يدوِّن السماع.

وثمة ظاهرة علمية أرَّختها الحركةُ العلمية في هذا المسجد، وهي تحوُّل التلميذ إلى أستاذ، فالإمام عبد الرحمن بن أبي عمر سمع مجالس ابن سمعون على الإمام زيد الكندي بهذا الجامع

(22) ترجمته في: المذيل على الروضتين: أبو شامة، ج2، ص74.
(23) الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب، ج 2، ص277.
(24) تاريخ الإسلام: الذهبي، ترجمة 106-113.
(25) ترجمته في: الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب، ج 3، ص 510.
(26) قام محمد مطيع الحافظ بنشر الكثير من هذه السماعات، ولكن ما نشره لا يتعلق جميعه بالجامع المظفري، وإنما ذكر أغلبه أنه في جبل قاسيون، ينظر جامع الحنابلة: الحافظ، ص 77- 89-101، وغيرها.
(27) الظاهرية مجموع (87، ق، 74)، نقلًا عن جامع الحنابلة: الحافظ، ص101-102.

سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م)، ثم عاد هذا الإمام ودرَّس هذا الكتاب سماعاً سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، أي بعد (٧٥سنة)[٢٨].

وفيما يأتي نموذج لأحد المجالس العلمية في جامع الحنابلة:

(سماع الإمام أبي عمر وغيره للفوائد الحسان العوالي من حديث أبي عمر السمرقندي على الشيخ عمر بن طبرزد بالجامع المظفري سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م)[٢٩]:

سمع هذا الجزء على أبي حفص عمر بن محمد بن معمر بن طبرزد، بقراءة شهاب الدين محمد بن خلف بن راجح: الإمامُ الزاهدُ أبو محمد بن أحمد بن قدامة، وولداه أحمد وعبد الرحمن، وأحمد بن الفقيه الإمام الحافظ أبي الفتح محمد بن عبد الغني بن عبد الواحد، وأبو العباس أحمد بن عبد الواحد، ووالده علي، ومحمد بن عبد الملك بن يوسف، وابنا أخيه محمد وعبد الرحيم ابنا عبد الملك، ومحمد وعبد العزيز وعبد الله بنو عبد الملك بن عثمان، وأبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن عبد الله، وأخوه أحمد، ومحمد بن أحمد بن سالم، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار، وابناه فاطمة وحضر أحمد في السنة الرابعة، وعبد الواحد بن محمد بن عبد الجبار، وأولاده أحمد وإسماعيل وإبراهيم وهو في السنة الثانية، وأحمد بن كامل بن عمر وولده عبد الله، وعبد الله بن عبد الهادي بن يوسف، وأخوه عبد الرحمن المقدسيون، وبيان بن عثمان بن محمد الحنبلي، ومحمد بن شيبان بن تغلب، وغازي بن إبراهيم بن مبادر العرضي، وبراق بن مشعل بن برق، وأخوه خضر وابن عبد الله عتيق الحاج يوسف بن حسان، ونصر بن موسى بن عياش المصري، وأبو الفتح عثمان بن أسعد بن المنجي التنوخي، وابنه أبو الفتح أسعد وأحمد بن كتائب بن مهدي، ومحمد بن عباد بن خفاجة، ومحمد بن عبد الحق بن خلف، وإبراهيم بن محاسن بن عبد الملك التنوخي وهو في السنة الثالثة، ومحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي، وأحمد بن عبد الملك المقدسي ،والخط له في الأصل في يوم الجمعة ثاني عشرين.

ويمكن الأخذ من هذا السماع:

١- العالم الذي سُمع عليه الجزء هو ابن طبرزد.
٢- القارئ في المجلس هو الشهاب محمد بن خلف بن راجح قريب آل قدامة.
٣- سمع في هذا المجلس الكثير من العلماء، ذُكر منهم في هذا السماع أكثر من أربعين طالب علمٍ بأعمار مختلطة وبقرابات مختلفة متنوعة.
٤- ذُكر في السماع حضور الأخ مع أخيه، والأب مع ولده أو مع أولاده، والعم مع أبناء أخيه.
٥- ذُكر في السماع وجود طلاب علم من آل المنجا التنوخيين، وهو إشارة مبكرة لعلاقتهم بالصالحية نزولاً وسكناً وتملُّكاً.
٦- دلَّ السماع على وجود طلاب علم من غير آل قدامة، وقد يكون من غير المقادسة الجماعيليين، وهذا يدلُّ على التنوُّع السكاني المبكر كوجود المصري والعرضي وغيرهما.

(28) يُراجع الظاهرية المجموع (117ق 180، وق 167). السماع في: جامع الحنابلة: الحافظ، ص113.
(29) الظاهرية مجموع 10(3747)، (ق 66-75). وقد نُشر في: جامع الحنابلة: الحافظ، ص77.

صحن الجامع المظفري (الحنابلة)

٧- أشار السماع إلى وجود الأطفال ممن عمره أربع سنوات، ومنهم مَن كان عمره سنتين، وآخر عمره ثلاث سنوات، وهذه الظاهرة تستحق الدراسة الخاصة، وكان لها تأثيرها في أجيال قادمة من سكان الصالحية.

٨- دلَّ السماع على وجود نساء أو بنات في هذا المجلس.

٩- أشار هذا السماع إلى تملُّك لهذا الجزء، وهو نسخة بخط أحمد بن عبد المَلك المقدسي، وهنا يدلنا هذا السماع وغيره على أسماء قد لا ترد في كتب التراجم وهي تحتاج إلى دراسة خاصة.

١٠- كان هذا المجلس سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م) في هذا الجامع.

_ من مجالس العلم الدورية في هذا المسجد الدرس الذي اعتاده الإمام محمد بن خلف بن راجح المقدسي (ت ٦١٨هـ/١٢٢١م)، إذ خصَّص درسَه قبل صلاة الجمعة، وقد شهده أبو شامة ووصفه قائلاً: ((كنتُ آراه يوم الجمعة قبل الزوال يجلس على درج المنبر بجامع الجبل، وبيده كتاب من كتب الحديث أو أخبار الصالحين يقرؤه على الناس إلى أن يُؤذِّنَ المُؤذِّنُ للجمعة))[٣٠].

أما العلماء الذين درَّسوا في هذا الجامع فهم لا يُحصَون عدداً، وقد ذكرت السَّماعاتُ الكثيرَ من أسمائهم ومجالسهم.

_ ومن المظاهر الرائعة في هذا الجامع وجودُ مجالس السماع الجماعي على الشيوخ والشيخات، وذلك باشتراك عدد من الشيوخ أو الشيخات في مجلس واحد لإسماع كتاب في الحديث الشريف وغيره، وهي طريقة فريدة تميَّزت بها الحركة العلمية في الصالحية، وتدلُّ على الانفتاح لدى العلماء والبعد عن التعصُّب والأنانية، وتُعطي الباحثَ صفةَ الموسوعية والتعدُّدية، ويتمُّ ذلك بأن يقرأ أحد الطلبة والبقية تحضر سواء من الطلاب أو العلماء، ووجود الشيخات ينمُّ على حالة من الوعي بعد أن كانت الرواية عنهنَّ في البيوت، ومثال عليه السماعُ لكتاب (مجلس البطاقة من أمالي حمزة الكناني)، وكان على ثلاثة عشر شيخاً وشيخة[٣١].

_ كانت مجالس العلم في الجامع المظفري تُشبه محاضرات علم في الجامعات اليوم، أو تُشبه ما تعارف عليه العلماء اليوم من الطريقة (الأزهرية)، من وجود قارئ على الشيخ الذي يكون من أهل الصالحية، أو من الذين نزلوها مدة طويلة، أو ممَّن ارتادَها للتدريس أو التلقِّي، ويمكن تفصيل هذه المجالس على الشكل التالي[٣٢]:

(30) المذيل على الروضتين: أبو شامة، ج1، ص346.
(31) الظاهرية (955)، (ق 184، صأ). وينظر: الحافظ: جامع الحنابلة: الحافظ، ص440.
(32) مصادر هذه الملحوظات هي مئات السماعات التي وُجدت على المخطوطات والأجزاء قام بنشرها محمد مطيع الحافظ في كتابه: جامع الحنابلة، وقد نشر أكثر من (200) سماع تمثل مادة غنية للحياة العلمية.

ـ تفاوت عدد الحضور بين بضع أفراد أحياناً ومئات الحاضرين في أوقات أخرى.

ـ تنوُّع الشيوخ بأصولهم واهتماماتهم.

ـ ظهر الكثير من القُرَّاء والكُتَّاب.

ـ سَمع في هذه المجالس الكبارُ من أهل العلم، وهذا يدل على تواضع العلماء.

ـ حضر الأطفال الصغار ممن هم دون سن الخامسة، ويُسمَّى تلقِّيهم (حضوراً) لا (سماعاً).

ـ كان للمرأة دور كبير على صعيد التلقِّي والتدريس.

ثانياً- المدارس:

وافقَت الصالحيةُ بتأسيسها ظاهرةَ انتشار المدارس في العالم الإسلامي عامة ودمشق خاصة، ولا سيَّما على يد السلطان نور الدين محمود بن زنكي، ثم على يد السلطان صلاح الدين، وكذلك على يد الأمراء والسلاطين الزنكيين والأيوبيين ومَنْ عاصرهم.

إذ ضمَّت دمشق خلال العصرين الزنكي والأيوبي عشرات المدارس، التي اختصَّ بعضُها بالحديث، وبعضُها الآخر بالفقه، إما على مذهب واحد أو على المذاهب الفقهية الأربعة أو بعضها[٣٣].

وبدهيٌّ أن تتأثَّر الصالحية التي قامت على أساس العلم بهذا الواقع، فبرعت ببناء هذه الصروح العلمية، ومنها:

١- المدرسة العمرية:

عُرفت بالمدرسة العمرية نسبة لبانيها وواقفها الشيخ أبي عمر، وعُرفت كذلك بالشَّيخية أو الشيخة، فالشَّيخية نسبة إلى لقب المؤسِّس الذي عرف بـ(شيخ الإسلام)، والشَّيخة: لأنها شيخة المدراس وأعظمها من حيث السَّعة والحركة العلمية.

ضمَّت العمرية أقساماً عديدة للحديث والفقه والقرآن، وما قيل في فضلها ومكانتها نابع من دورها العلمي والاجتماعي، وهنا سنبرز دورَها العلمي.

وصفَها العلماء ومنهم: ابن عبد الهادي الصالحي: ((هذه المدرسة عظيمة لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها))[٣٤].

أ_ ترجمة بانيها وواقفها(٣٥):

بنى هذه المدرسة وأوقف لها الإمامُ العالم الفقيه المقرئ المحدِّث أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي الجمّاعيلي (٥٢٨ – ٦٠٧هـ/١١٣٤-١٢١٠م)،

(33) إضافة لكتب التاريخ والتراجم التي أرَّخت لمثل هذه المراكز هناك كتب اختصَّت بذكر المدارس، ومن أهم المصادر في ذلك: الأعلاق الخطيرة: ابن شداد، الدارس: النعيمي، منادمة الأطلال: عبد القادر بدران.

(34) الدارس: النعيمي، ج2، ص111، وابن عبد الهادي أحد أحفاد المقادسة، وهو مدرس من متأخِّري علمائها زمناً (ت 909هـ)، وهو شيخ ابن طولون مؤرخ الصالحية.

(35) سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج 22، ص 5، وينظر: الذيل: ابن رجب، ج3، ص 108، المذيل: أبو شامة، ج1، ص213، البداية والنهاية: ابن كثير، ج13، ص58، وله مصادر كثيرة، وكثير منها نقل عن الضياء، فقد ترجم له سيرته ومناقبه.

من بقايا المدرسة العمرية

لَقَّبه الذهبيُّ بـ (البركة) و(وشيخ الإسلام) و(الزاهد)، وهذه الألقاب تُشير لمكانته وعلمه، وُلد أبو عمر سنة (٥٢٨هـ) بقرية جمَّاعيل من أعمال نابلس، وهاجر مع أبيه كما مرَّ، وأسهم معه في بناء الصالحية، وكان قدوةً صالحاً عابداً، وكان مرجعاً في الصالحية ودمشق، قال الموفَّق: ((ربانا أخي، وعلَّمنا، وحرص علينا))، وأخباره ومواقفه الاجتماعية وتأثيره في مجتمع الصالحية تناثرت في ثنايا كتب التراجم.

توفِّي عشية الإثنين في ٢٨/ربيع الأول سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م) وكانت جنازته كبيرة.

ب ـ دور المدرسة العلمي:

مثَّلت المدرسة العمرية دور المؤسسة العلمية المتكاملة، ولم تقتصر على الدور العلمي، وإنما تعدَّته لتشمل جوانب اجتماعية أخرى، ولأهمية مكانتها ذُكر في فضلها الكثير نثراً وشعراً، فما أورده ابن طولون بقوله ومما يُنقل في ترجمتها من الفضل: ((أنها تنفي الخبثَ، فلا تدع فيها مفسداً إلا نفته وأخرجته، وأنه لا يدخلُها أحد إلا بشفاعة، ولا يخرج منها أحد إلا بذنب، وأنها لا تخلو من الصالحين))[٣٦].

وممَّا يدل على قيمتها العلمية، قيام الشعراء بوصفها شعراً، ومن ذلك ما نقله ابن طولون[٣٧].

وأما دورها العلمي فمثَّلت العمريةُ دورَ الجامعة أو الأكاديمية بكل ما فيها من أقسام وأهمها:

(36) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: محمد بن طولون، ص270
(37) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص 514-516

– مكان التدريس.
– غُرف السكن الجامعي للطلاب القادمين من خارج الصالحية.
– المرافق العامة كالمطبخ والحمام والمياضئ.
– المكتبة الضخمة التي تلبِّي هذه الحركة العلمية.
– الأوقاف التي ترعى سير العملية التعليمية.
– الهيئة الإدارية التي تُنظِّم سير العملية التعليمية.
– الأنشطة والتفاعل مع البيئة والمجتمع.
– استقبلت المدرسة المئات من طلاب العلم، واحتضنت العلماء، ونظمَّت الدروس في جوٍّ يُعَدُّ من الأجواء الفريدة في الحضارة العربية الإسلامية[٣٨].
– سخَّان الماء.

ج ـ مناهج المدرسة:

المقصود بهذه المسألة سيرُ العملية التعليمية، فتنفيذ المناهج (methods) يعتمد على الطالب والأستاذ والمقرِّر أو المادة العلمية التي يتمُّ تلقيها أو مناقشتُها.

– أما المُدرِّس، فالبحث في أسماء الشيوخ وأعمارهم وانتماءاتهم البلدانية والفكرية يحتاج إلى دراسة مستفيضة، ولاسيَّما أن كتب التراجم والسماعات على المخطوطات التي وصلت إلينا تُقدِّم لنا مادةً ثرّة.

وبالإجمال يمكن القول إنَّ كل مقدسي نزل الصالحية زائراً أو مقيماً نال حظّاً من التلقِّي بوصفه تلميذاً، أو مارس العمل بوصفه أستاذاً، وفي هذه المدرسة أيضًا حلَّ الكثير من العلماء الذين قدموا دمشق أو كانوا دمشقيِّين، فنرى في كتب التراجم عبارة (روى في البلد وفي الصالحية).

ومن أشهر مُدرِّسيها وأقدمهم:

الحافظ العلامة الشيخ عبد الغني المقدسي، فقد أرَّخ ابنُ شداد لتدريسه فيها بقوله: ((أول مَن ذكر بها الدرس: الشيخ تقيُّ الدين ثم من بعده ولده عزُّ الدين))[٣٩]

والذي يُتوقَّف عنده من هذا النص هو السؤال: لمَ لمْ يكن أبو عمر أول المُدرِّسين فيها، ولاسيَّما أنَّه هو المؤسِّس؟ ولعل الجواب عن ذلك يكون من وجهين:

الأول: أنَّ من ذكر مُدرِّسيها لم يذكرهم على صعيد الاستقصاء، ولاسيَّما أنَّ الشيخ كان عالماً بالفقه والفرائض والنحو[٤٠].

والثاني: ربما شغله ارتباطه الاجتماعي والرسمي عن القيام بمهمة التدريس، فهو الذي قام بشؤون المقادسة، وكان مرجعَهم، وشارك في جهاد الفرنج، وبعد التحرير حمل همَّ الصالحية وهمَّ بلده جماعيل[٤١].

(38) المدرسة العمرية: محمد مطيع الحافظ، ص 342، وقد قدَّر ما استوعبته من طلاب بألفي طالب.
(39) الأعلاق الخطيرة: ابن شداد، ص259.
(40) مناقب أبي عمر للضياء المقدسي (نُشر ضمن المدرسة العمرية) لمطيع الحافظ، ص62.
(41) مناقب أبي عمر: الضياء المقدسي، ص63.

ومن مسؤولياته التي شغلته تولّيه نظر أوقاف هذه المسؤولية والإشراف عليها، وهي مهمة تشبه مهمة مدير المدرسة التربوية والمالية.

ومن مدرسي العمرية الفقيه عزُّ الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد الملك بن عثمان المقدسي[٤٢](ت ٦٣٤هـ/١٢٣٧م) الذي سمع من عمر بن طبرزد وتفقّه في المذهب، ودَرَّس بمدرسة الشيخ أبي عمر مدَّة، وحَدَّث، وهو تلميذ الموفق بن قدامة، وقد نقل الذهبي من خط الضياء تدريسه في العمرية، وقال عنه الضياء: ((وكان ديِّناً خيِّراً ودُفن بتربة خال أمه الشيخ الموفق)).

وتولَّى التدريس في هذه المدرسة علماء من غير أسرة آل قدامة، منهم الفقيه عزُّ الدين عبد العزيز بن عبد الملك المقدسي، الحنبلي، تلميذ الموفق، (ت ٦٣٤هـ)، وقال عنه الضياء: ((وكان إماماً عالماً فطناً، ذكيّاً، وقد ألقى الدرس مدةً بمدرسة شيخنا أبي عمر وكان ديِّناً خيِّراً))[٤٣]، وتولَّى التدريس في هذه المدرسة فقيه حنبليٌّ شافعي هو نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسي، وهو سبط الإمام أبي عمر، لأن والدته آمنة هي ابنة الشيخ (ت ٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، وقد دَرَّس هذا العالمُ في عدّة مدارس بدمشق وبالجبل[٤٤].

ومن المُدرِّسين الأكفاء في هذه المدرسة قاضي الجبل الإمام شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) – ابن مؤسس المدرسة –، وقد لُقِّب بـ(شيخ الإسلام)، وكان عالماً بالفقه، شرح كتاب (المقنع) لعمِّه الموفق بعشر مجلدات، وقد تناثرت سيرته في هذه الدراسة ولا سيَّما في القضاء والنتاج العلمي.

أما الطلاب فقد تمتَّعوا برعاية كبيرة على الصعيد المادي والعلمي والنفسي.

ـ الجانب المادي؛ فقد تجلَّى من خلال تخصيص الأوقاف والرعاية والطعام والمبيت والكتب المنسوخة لهم وأحياناً النفقة.

ـ أما الجانب العلمي فقد تجلَّى تأمين المدرسين الأكفاء لهم، ومن خلال المكتبة الضخمة التي ضمَّتها المدرسة.

ـ وتمَّ الجانب النفسي: من خلال التَّرحاب الذي لقيه كلُّ من دخل الصالحية وافداً، ومن خلال الاهتمام بالصغار وتحمل لعبهم والحرص على حضورهم لمجالس العلم، وبعضُهم لم يُتِمَّ الثالثة من العمر.

تمحورت المادة العلمية المدروسة حول ما حمله العلماء من علوم ومصنفات، ويرى بعضهم: ((أنّ أبا عمر أسَّس مدرستَه لتعليم القرآن والفقه الحنبلي))[٤٥]، إلّا أنَّ الواقع العمليَّ لا يتوقَّف عند هذا الأمر، بل إنَّ هذه المدرسة اعتنَت بكل فنون العلم، ولاسيَّما الشرعي منه، ولم تكن هذه التقسيمات في هذه المرحلة، ولعلَّه من الإنصاف التأكيد على أن المنحى المتَّبع في قراءة الفقه

(42) تاريخ الإسلام: الذهبي، 198، الذيل: ابن رجب، ج3، ص463.
(43) الذيل: ابن رجب، ج 2، 216، تاريخ الإسلام: الذهبي، (وفيات 634هـ)، الدارس: النعيمي، ج2، ص106.
(44) الدارس: النعيمي، ج1، 318.
(45) المدرسة العمرية: الحافظ، ص 228 والفكرة أُخذت عن النعيمي في الدارس، ج2، ص78.

هو كتب الحنابلة ولا سيَّما (مختصر الخرقي)، الذي حفظه كبار المقادسة[٤٦] قبل مجيئهم إلى دمشق وبعد تأسيس الصالحية، حتى غدا حفظ هذا المختصر علامة على التَّفقُّه، وبعد ذلك توالت العناية به وشرحُه، إذ تكلَّلت بكتاب (المغني) للموفَّق، فأصبحت نتاجات الموفق بن قدامة مصدرَ الدراسة في هذه المدرسة.

هذا على صعيد الفقه، أما بالشكل العام، فتعود هذه المناهج إلى عدَّة اعتبارات، منها:

ـ حرص المقادسة على تعليم صغارهم القرآن الكريم، فكان هناك متخصِّصون بالإقراء، ومنهم من أقرأ بالقراءات السبع كالحافظ الشيخ العماد الذي حفظ عليه أكثر أهل الصالحية.

ـ كان لتوجُّه الشيوخ وعلومهم وإجازاتهم دوراً في تحديد المادة العلمية المقروءة أو التي كانت محلاً للبحث.

ـ هناك عامل مهمٌّ، وهو ما تلقّاه علماءُ الصالحية المرتحلون لطلب العلم، إذ قدموا الصالحية ورَوَوه لأقاربهم.

كل هذا أدَّى لتنوُّع العلوم كالحديث والرجال والسير والقصص واللغة ومجالس الأشعار وكتب وأجزاء العقيدة ومجالس النظر.

إذن: كان القرآن والفقه والحديث أكثرَ العلوم تدريساً في هذه المدرسة، وإضافة لما حمله الشيوخ النازلون بها.

فعلى صعيد القرآن الكريم، أرَّخ أبو شامة المعاصر (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، وهو أحد كبار القُرَّاء واقع تحفيظ القرآن في هذه المدرسة فيما نقله عن ابن طولون: ((وقد حفظ القرآنَ بها أممٌ لا يُحصَون))[٤٧]، أمَّا الفقه والحديث فإنَّ مؤلَّفات المقادسة، ولاسيَّما الموسوعات الضخمة في الفقه الحنبلي، قد قُرئت في هذه المدرسة، ويمكن تتبُّع الكتب التي سُمعت على الشيوخ، وهي من اختصاصات متنوعة، وأسوق مثالاً على ما ذهبتُ إليه السماعَ الذي تلقاه الشيخ أبو عمر- المؤسس - ومعه ولداه أحمد وعبد الرحمن على ابن طبرزد المؤدِّب لجزء فيه (الفوائد المنتقاة عن الشيوخ العوالي) رواية البزاز الحافظ، إذ كان السماع سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٩م) بمدرسة الصالحية بجبل قاسيون[٤٨].

وختاماً: قدَّمت المدرسة العمرية تراثاً زاخراً للحضارة العربية الإسلامية، على صعيد مناهجها وعلمائها، وينبغي إعادة إحيائها للحياة قبل ضياع مكانها، كما حدث لكثير من مخطوطاتها ونتاجها العلمي.

٢- دار الحديث الضيائية:

مثَّلت دار الحديث الضيائية مَعلَماً مُهمّاً من معالم الصالحية، وكان لها دورٌ كبيرٌ ومدلولات اجتماعية وفكرية، ولاسيَّما أنَّ هذه الدار قد تنفرد بأسبقية قلما نجد مثيلاً لها، وهي أنَّها

(46) حفظه مؤسس الصالحية أبو العباس أحمد وابناه أبو عمر والموفق وغيرهم.
(47) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص263، ولم أعثر على هذا النص عند أبي شامة.
(48) المدرسة العمرية: الحافظ، ص177.

أُسِّست على مُلك خاصٍّ وبجهود خاصة وبكتب تعود ملكيتها لشخصية واحدة، كلُّ هذا كان على يد الحافظ الضياء، ثم ما لبثت أن تحوَّلت لمركز علمي عظيم قدَّم للحضارة الكثير، وتُشير السماعات التي أوردها محمد مطيع الحافظ[٤٩] لتأكيد نسبة الدار وإنشائها للضياء، وتُشير كذلك لغنى مجالس العلم وحضور العشرات من العلماء والطلاب لهذه المجالس في هذه الدار التي غدت معلماً نافس المدرسة العمرية، ويرى الباحثُ أنَّ هناك فارقاً بين المؤسَّستين العمرية والضيائية، إذ اشتركتا في أشياء وتفردت كلٌ واحدة بأمور، وتمكن المقارنة من عدة وجوه:

_ كانت العمرية أكاديمية ركَّزت على تعدُّد العلوم واستقطاب النازلين بها وتأمين متطلباتهم، في حين كانت الضيائية لحضور مجالس السماع، ولاسيَّما علوم الحديث.

_ مارست العمرية دوراً اجتماعيّاً لأهل الصالحية ولمن نزلها، ولم يكن ذلك للضيائية.

_ كانت العمرية مركزاً عموميّاً، أما الضيائية فتُشبه مركزاً علميّاً خاصّاً، إذ كان أكثرُ الكتب المسموعة إنَّما سُمع على الضياء صاحب هذا المحضَن التربوي العلمي، ويغلب على الحاضرين المقادسة وأقاربهم، فمن خلال تتبُّع مُدرِّسي الضيائية الذين تولَّوا التدريس فيها بعد وفاة الضياء، نجد أنَّ الأوائل منهم كانوا من المقادسة، ويكاد ينحصر النشاط بآل قدامة.

فعندما أرَّخَ ابنُ شداد لهذه المدرسة كان المُدرِّس فيها شمس الدين ابن أبي عمر-قاضي القضاة - خطيب جبل الصالحية، إذ قال عنه: ((وهو مستمرٌ بها إلى الآن))[٥٠]، وهو ما يؤكد أهمية هذه الدار، فتدريس القاضي بها يَعني تدريسَه بمركز كبير، وكذلك من جاء بعده كالشمس الآخر محمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد المقدسي المعروف بابن الكمال (ت ٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، وتميَّز هذا الرجل بعلمه، ولاسيَّما بالفقه، إذ أتمَّ كتابَ الأحكام الذي بدأه عمُّه الضياء، وتخرَّج على يده في هذه المدرسة ابنُ تيمية والحافظ المزّي والبرزالي وغيرهم من علماء دمشق الكبار[٥١].

_ يفيد أحد السماعات أنَّه تمَّ سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م)، وأنَّه صحَّ وثبت بمنزله - أي بمنزل الضياء -، ولعلَّ المقصود بمنزله هو هذه الدار، وهو ما يؤكد صفتها الخاصة وهو ما ميَّزها عن العمرية.

_ كان التدريس فيها مقتصراً على الحافظ الضياء، ثم تولَّى التدريسَ علماءُ المقادسة كالقاضي شمس الدين بن أبي عمر.

_ ضمَّت الضيائيةُ كالعمرية مناصبَ كالإمام والناظر ومُلقِّن القرآن الكريم.

٣- مدرسة الصاحبة وبدايات التنوُّع الفكري في الصالحية:

جاء ذكر هذه المدرسة وقصتها في دراسة الحياة الاجتماعية، وما طرأ على الصالحية من تغيُّرات عمرانية وسكانية، إذ إنَّ واقفة هذه المدرسة ومُنشئتَها هي الصاحبة ربيعة خاتون، أخت صلاح الدين، التي دُفنت بمدرستها هذه (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، أما الوقفةُ العلمية عند هذه المدرسة

(49) دار الحديث الضيائية: محمد مطيع الحافظ.
(50) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص134.
(51) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج3، ص 247، الذيل: ابن رجب، ج4، ص224.

فتتمثل بفكرة البناء وانتماء أصحاب الفكرة، ونشاطات المدرسة:

أ ـ بنو الشيرازي الحنابلة وامتدادهم الفكري إلى الصالحية:

كان بنو الشيرازي يمثلون المذهب الحنبلي في دمشق، ونزل عندهم آل قدامة عند هجرتهم، وكان لبني الشيرازي حظوةٌ عند البيت الأيوبي، ومن صور هذه المكانة التقارب بين المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية على صعيد النساء، وقد مثَّل هذا التقارب العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي في صحبتها للخاتون ربيعة، وهذا دعا ابن كثير لتأصيل هذه العلاقة بقوله: ((وكان في خدمة الواقفة الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي، وكانت فاضلة لها تصانيف، وهي التي أرشدتها إلى وقف المدرسة الصاحبة على الحنابلة، ثم صُودرت لأجلها))[٥٢].

واجهة مدرسة الصاحبة

وللعالمة هذه قصص أخرى تتعلَّق بالبيت الأيوبي، أما سيرتها فقد نقل بدران بعض أخبارها عن ابن شقدة في (مختصر الشذرات)، ومما نقل: ((وفي تربة بني الشيرازي دُفنت أمة اللطيف صاحبة التصانيف، ومن جملتها: كتاب (التسديد في شهادة التوحيد) وكتاب (بر الوالدين) ...))[٥٣].

ويذكر بدران أنَّ العالمة أنشأت داراً للحديث في منطقة ما يُسمَّى اليوم (المهاجرين)، ولكنّ بدران يذكر أنَّ ترجمة هذه المرآة لم يأت عليها أحد سوى ابن شقدة، في حين نجد أنَّ البحث يقودنا إلى الوقوف على كثير من المؤرخَين كالسبط والذهبي وابن كثير وغيرهم[٥٤].

توفِّيت العالمة سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، والغرض من الوقفة عندها هو أنَّ بناء هذه المدرسة يُبيِّن مدى تأثير النساء في الحياة العامة، وامتداد توجُّه آخر من أطياف الحنابلة إلى الصالحية بعد أن كانت حكراً على آل قدامة، على صعيد المؤسسات على الأقل.

ب ـ نشاطات المدرسة:

بدأ التدريس في هذه المدرسة سنة (٦٢٨هـ/١٢٣١م)، وكان المُدرِّس الناصح - والد العالمة ، وكان يوم الافتتاح يوماً مشهوداً، وحضرت الواقفة من وراء ستر[٥٥].

وقد نقل ابن طولون عن ابن شداد طبيعة النشاط العلمي بعد تأسيسها بقوله: ((أول من

(52) البداية والنهاية: ابن كثير، ج 13، ص170.
(53) منادمة الأطلال: بدران، ص238.
٥٤ () تاريخ الإسلام: الذهبي، ص ١٤٥، البداية والنهاية: ابن كثير، ج١٣، ص١٧٠، الدراس: النعيمي، ج٢، ص٦٣، ٨٧.
(55) الذيل: ابن رجب، ج 3، ص427.

مدرسة الصاحبة من الداخل

ذكر بها الدَّرسَ ناصحُ الدين الحنبلي، ثم من بعده ولدُه سيف الدين يحيى إلى أن توفِّي، وناب عنه صفيُّ الدين خليل المراغي حين توجَّه إلى بغداد وابن أخيه شرف الدين محمد بن عبد الله بن الشيخ ناصح الدين، وبقيت على أولاده وينوب عنهم فيها الشيخ تقيُّ الدين المعروف بابن الواسطي، وهو مستمرٌّ بها إلى الآن))[٥٦].

ومن خلال تتبُّع المُدرِّسين في هذه المدرسة أجد أنَّ هذه المدرسة استُبعدَ من التدريس فيها أعلامُ الصالحية الكبار من المقادسة، مع أنّها حُدِّدت للحنابلة، والمقادسةُ كانوا كذلك، وتعليل هذا الأمر هو التنافس بين الأسرتين الحنبليَّتَين (آل الشيرازي) و(آل قدامة)، والعامل الآخر هو وجود مراكز خاصة للمقادسة في الصالحية.

ونجد ظاهرة أخرى، هي اشتراك مُدرِّس كبير بالتدريس في مدارس هاتين الأسرتين، وهو العلامة الزاهد تقيُّ الدين إبراهيم بن علي المعروف بابن الواسطي (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م)، وكان هذا العالم حنبليّاً من أهل الصالحية، وكانت إمامتُه الأولى بدمشق، وعن شيوخها نال علومه، وجاء في ترجمته: ((ثم رحل إلى الشام ودرَّس بالصاحبة عشرين سنة، وبمدرسة أبي عمر،

(56) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص 239.

ووَلِيَ في آخر عمره مشيخةَ الحديث بالظاهرية...))[٥٧]، ثم تنوَّعَ المُدرِّسون، فقد درَّس فيها من المقادسة ومن غيرهم، وواضح أنَّ نشاطها تمحور حول الفقه، ولاسيَّما الحنبلي.

٤ _ دار الحديث الأشرفية:

تقع على حافة نهر يزيد، تجاه تربة الوزير تقيِّ الدين توبة بن علي التكريتي، وقد ذكر ابن طولون مدرستين بجوارها.

أنشأ هذه المدرسة الملك الأشرف موسى بن الملك العادل، الذي سمع صحيح البخاري على الزبيدي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، وتوفِّي سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٨م)، وقد خصَّص الأشرفُ هذه المدرسة للحافظ جمال الدين عبد الله بن الحافظ عبد الغني من آل سرور المقادسة، وهذا العالم تتلمذ على يد مشاهير علماء عصره بدمشق، وارتحل إلى بغداد وأصبهان، ((وكتب بخطه الكثير وجمع وصنَّف وأفاد ...))[٥٨]، وتنوَّعت معارفُه، فقد تلقَّى القراءات عن عمِّه العماد، والفقه عن الموفَّق، وقال عنه الضياء: ((كان علاَّمة وقته))، ونقل ابن طولون عن الذهبي: ((روى عنه الضياء وابن أبي عمر وابن البخاري ... وبنى له الملك الأشرف دارَ الحديث بالسَّفح وجعله شيخَها وقرَّر له معلوماً، فمات قبل فراغها، إذ توفِّي في رمضان ٦٢٩هـ))[٥٩].

وبوفاة هذا العلم تولَّى التدريس في هذه الدار شيخُ المقادسة وقاضي القضاة وخطيب الجبل الشمس بن أبي عمر (٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، وسيرته تناثرت في ثنايا هذا البحث.

وقد مات وعمره خمس وثمانون سنة، وتولَّى التدريس فيها من بعده الإمام الشمس بن الكمال، الذي تولى الضيائية أيضاً، وقد مرَّت سيرته وعلمه وتخرج العلماء على يديه.

وبعده الحسن بن عبد الله - حفيد أبي عمر - وبعده القاضي سليمان بن حمزة - ابن حفيد أبي عمر، وبقيت هذه المدرسة بيد المقادسة إلى مراحل متأخِّرة، فأصابها ما أصاب المدارس الأخرى من إهمال، إذ تولاها مَن تولَّى قضاء الحنابلة، وإن لم يكن أهلاً للتدريس[٦٠].

ثالثاً _ البيمارستان القيمري:

يُعد هذا البيمارستان من مفاخر الصالحية، ويشير لوجود الاهتمام بالطب في دمشق عامة، والصالحية خاصة.

ذكر ابن طولون موقعه وسط الصالحية[٦١]، ومكان هذا البيمارستان معروف اليوم، وهو بجوار مسجد محيي الدين بن عربي، ولكنَّه مغلق، ولا ندري لماذا؟ فيما يتعلَّق بموقع هذا البيمارستان فقد نقل ابن طولون عن ابن عبد الهادي قوله: ((فهو من أحاسن الدنيا، يقال إنه ليس ثَمَّ في الدنيا بيمارستان أحسن منه، ولا أشرح، فإن فيه هذا الإيوان المعظَّم والقاعتان المعظمتان القبليات بهذه الشبابيك المشرفة على الدنيا، وتحت الشبابيك هذا الحوض النارنج لا

(57) القلائد الجوهرية: ابن طولون، 241.
(58) ابن رجب: الذيل، ج3، ص 396.
(59) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص 156، نقلًا عن ابن مفلح الذي نقل عن الذهبي.
(60) منادمة الأطلال: بدران، ص33.
(61) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص 346.

البيمارستان القيمري

سيما في أيام زهره تفوح منه هذه الرائحة الزكية، فتنعش النفوس وتزكي الأرواح))[٦٢].

ويتابع ابن طولون وصفَه، ويذكر فيه قاعتان، ويذكر أقساماً له تتعلَّق بالشرابات والمعاجين والأكحال والأشياف الخاصة بالعين، وهناك بجواره مطبخ، وفي غربيِّه قاعة للمجانين، والشيء اللافت للنظر بركة معظمة بوسطه يأتي إليها الماء بناعورة مركبة على نهر يزيد.

وعن أطبائه ذكر ابن طولون أنَّ فيه فريقاً طبياً كاملاً، أوقف هذا البيمارستان وأنشأه الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن أبي الفوارس القيمري (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، قبره في تربة مقابل هذا البيمارستان.

يُعد هذا المشفى مَعلمةً عمرانية رائعة، ومركزاً طبيّاً متطوِّراً، ميَّزه عن غيره وقوعُه في بيئة نقيّةٍ في مرتفع من الأرض.

ازدادت العناية به في العصر المملوكي، ويمكن معرفة أهميته من خلال الوقفيات المتعلِّقة به، وهي تفوق أيَّ مؤسسة أخرى[٦٣]، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن بناءه كان نتيجة لتطوُّر علم الطب في دمشق بوجود الرعاية الطبية من الحكام وأهل الخير فيها.

(62) ابن القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص 346-347.
(63) منادمة الأطلال: بدران، ص 260.

البيمارستان القيمري

وهنا لابد من الإشارة لما يُعتقد أنه نواة لبناء هذا البيمارستان، وهو وجود الأطباء الكبار، وكان لأحدهم علاقة بالصالحية، وهو شيخ الطب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقي[٦٤] (وُلد سنة نيِّف وستين وخمسمئة).

قال عنه الذهبي: ((وله تصانيف في الاستفراغ، انتهت إليه رئاسة الصناعة وحظي عند الملوك، ونال دنيا عريضة، ونسخ بخطه المنسوب أزيَدَ من مئة مجلد، وأخذ العربية عن الكندي، والعلاج عن الرضي الرحبي، والموفق ابن المطران والفخر المارديني...))[٦٥]، توفِّي في صفر(٦٢٨هـ/١٢٣١م)، ودُفن بقاسيون.

ولا بدَّ من الوقوف عند ترجمة الدخوار بنقاط عدّة:

ـ وجود أساتذة من المختصين بالطب تلمذ عليهم، وهم يمثلون جانباً من واقع الطب في العصر الزنكي وما قبله.

ـ للدخوار الطبيب يدٌ بيضاء في تطوُّر الطِّبِّ، فقد وقف داره التي في درب العميد لتصبح مدرسة للطب بدمشق.

ـ لم تكن الصالحية بعيدةً عن الدخوار، بل كان على علاقة وطيدة مع أهلها، وقد تملَّك بستاناً في سفوحها، ولعلَّه كان مركزاً علميّاً يجمع فيه العلماء والأطباء، وهو النواة لاهتمام الصالحية بالطب.

ـ وختاماً:

أرجو أن يكون هذا البحث قد أسهم بإظهار جوانب من تاريخ مدينة دمشق، هذه المدينة العظيمة التي عشقها مَن عرفها، وتعلَّق بها من عايشها، وقد أكّد هذا البحث حيويتها وتجدُّدَ الحياة فيها، لتكون حقّاً مهدَ الحضارة وقلبَ العروبة النابض.

(64) ترجمته في: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي، ج8، ص672.
(65)سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج22، ص316-317.

مصادر البحث ومراجعه

ـ المصادر:

ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد محمد بن علي، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٣م.

ـ البداية والنهاية: ابن كثير إسماعيل بن عمر، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤م.

ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية: ابن الأثير علي بن محمد، تحقيق: عبد القادر طليمات، مكتبة المثنى، ١٩٦٣م.

ـ تاريخ الإسلام: الذهبي محمد بن أحمد، تحقيق: بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٨٨م.

ـ تاريخ داريا: الخولاني عبد الجبار، تحقيق: سعيد الأفغاني، دمشق.

ـ تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، أو رحلة ابن جبير: ابن جبير محمد بن أحمد، دار التحرير المصرية. ١٩٦٨م.

ـ التكملة لوفيات النقلة: المنذري عبد العظيم، تحقيق: بشار عواد، بيروت، ١٩٨١م.

ـ الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي عبد القادر، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٠م.

ـ الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب عبد الرحمن بن أحمد، العثيمين، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ٢٠٠٥م.

ـ سير أعلام النبلاء: الذهبي محمد بن أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، ١٩٨٥م.

ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: محمد بن طولون، تحقيق: محمد أحمد دهمان، ط٢، دمشق, ١٩٨٠م.

ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي يوسف بن قز أوغلي، حيدر آباد، ١٩٥١م.

ـ المذيل على الروضتين: أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، دار الجيل، بيروت.

ـ الوافي بالوفيات: الصفدي خليل بن أيبك، نشر: ديدرينغ، شتاير، ١٩٨٠م.

ـ معجم الأدباء: ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بدران، دمشق, ١٩٨٥م.

ـ المراجع:

ـ البيمارستانات في دمشق: إلهام محفوض، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٠م.

ـ بيمارستان نور الدين: صلاح الدين المنجد، دمشق.

ـ الجامع المظفري: أحمد فائز الحمصي، مجلة الحوليات الأثرية، دمشق ١٩٨٥م.

ـ جامع الحنابلة المظفري: مطيع الحافظ، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

ـ خطط دمشق: أكرم العلبي، دمشق، ١٩٨٩م.

ـ دار الحديث الضيائية: محمد مطيع الحافظ، دار البيروتي، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.

ـ المدرسة العمرية: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٠م.